الملامح الثورية في ديوان "إرهاصات سرابية" لمحمد بلقاسم خمار.

د.حساني فضيلة
جامعة الجيلالي اليابس - سيدي بلعباس

ملخص:

تُجمع الدِّراسات النقدية على أنّ أغلب الشعر الجزائري الحديث بدأ محافظا إصلاحيا، سار على خطى الشعراء التقليديين والتزم بالشكل الإيقاعي القديم وبالمضمون الإصلاحي الذي حدّدت معالمه جمعية العلماء المسلمين، فكان يحمل طابع تربوي تعليمي، غير أنّه لم يدم طويلا؛ فالشعراء أحسوا بضيق هذه القوانين التقليدية، ذلك أنّها لم تعد تلبي رغباتهم، فراحوا يبحثون عن نوع آخر يناسب تطلعاتهم وآمالهم ، وكان لهم ذلك، فقد ظهر ما يسمى بالشعر الثوري الذي مزج بين المضمون الدّيني من جهة والرومانسي الباكي والحالم معًا من جهة أخرى ، الأمر الذي جعله يلقى استحسانا وقبولا لدى المتلقي، ولنبين أثر هذا الاتجاه في الشعر الجزائري الحديث اخترنا بحث بعنوان: الملامح الثورية في ديوان "إرهاصات سرابية" لمحمد بلقاسم خمار.

Abstract:

Critical studies agree that most modern Algerian poetry started as a reformist conservative, following in the footsteps of the traditional poets and adhering to the old rhythmic form and the reformist content defined by the Association of Muslim Scholars, which was of an educational and educational nature, but it did not last long; The so-called revolutionary poetry that blended religious content on the one hand and romantic tears and dreamer together on the other, which made it well received and accepted by the recipient,To illustrate the impact of this trend on modern Algerian poetry, we chose a research entitled: The revolutionary features in the Office of "Sarabat Sarabi" by Mohamed Belkacem Khemar

جاءت هذه المجموعة الثورية بعنوان "إرهاصات سرابية" وقد وردت هذه العتبة بصيغة جمالية مثقّلة بالإيحاءات، ساهمت في ذلك الفجوة النحوية التي وردت بها والتي جعلتنا نبحث عن سبل ملئها وهنا مكمن الجمال ، يوافقنا في هذا "محمد فكري الجزار"حين اعتبر أنّ "العنوان يتميز بسمات قريبة من الشعرية عندما يكون خطاب ناقص النحوية أو لا

نحوي بامتياز"[1]، وبعد التأويلات التي أسقطناها على هذه العتبة خلصنا إلى أنّ مكمن السرّ هو في لفظة "السراب"، الأمر الذي جعلنا نتحمس ونبحث عن مقصد الشاعر بهذا اللفظ، فبعد أنّ قمنا بعملية استقرائية وجدنا أنّ أغلب أشعار هذه المجموعة كتبت قبيل اندلاع الثورة التحريرية، فحمل السراب معنى خيبة الأمل الكبيرة التي تلقاها الشعب الجزائري في حوادث ماي 1945 بعدما وعدته فرنسا بالحرية في حال فازت في حربها، والشاعر ترجم هذه الخيبة والحسرة في هذه المجموعة رغبة منه في إيقاظ العزائم من أجل التحرّر.

هذا ما حمله العنوان من ملامح ثورية متوارية أما في المجموعة ذاتها فقد وردت هذه الملامح صريحة لا يجد القارئ كبير عناء في كشفها فالمعجم الغالب عليها هو المعجم الثوري، وقد قمنا بتقسيمه إلى أربع معاجم بالترتيب عل حسب نسب التواجد في الديوان:

1. **معجم خاص بالألم والحزن وما فيه من المعاني**: وجدنا الديوان مثقّلا بمعاني البؤس واليأس وما شابهها، وقد بلغت 28،51% مقارنة بالمعاجم الأخرى وهذا بعض منها:

الضحايا ـــ الضنى ـــ الأذى ـــ العذاب ـــ الوحدة ـــ ارتياب ـــ اضطراب

هوسي ـــ مخنوقة ـــ اكتئاب ـــ مكره ـــ قهر ـــ الأسى ـــ عويل ـــ شقائي ـــ جروحي

الكآبة ـــ المصائب ـــ الرزايا ـــ التذلل ـــ الجهل ـــ بلايا ـــ موحش ـــ الدمع ـــ رهيب.

وخمار لا يبكي ولا يشتكي من ألم واحد، بل أكثر، فهو سجين غربة يعاني الوحدة والشوق لبلاده، يقول:

حياتي انتظار طويل المدى أحـطم فـيه شبابي سـدى

فؤادي حزين، وفكر شــرود فراغ... وليل رهيب الصدى

ويتألم لوطنه المسلوب وشعبه المعذّب الذليل، فيصور بشاعة الغاصب الفرنسي مع شعبه في مجازر ماي، فيخاطب ساخطا :

ما ذنبهم حتى يفرق شملهم حبٌّ من النيران كالحصباء

ـــ محمد فكري الجزار، العنوان وسميوطيقيا الاتصال الأدبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب دط، 1998، ص 40.[1]

ويقتلون كبيرهم وصغـيرهم بوسائل التمثيل والفحــشاء[2]

وهذه الأحزان كانت وليدة مرحلة عصيبة جدا؛ خيبة ماي 1945 وتضارب سياسي حاد كاد يؤدي إلى فشل المقاومة قبل اندلاع الثورة، وقد "حاول شعراء ما قبل الثورة احتضان حجم المأساة، فصوروا الأوضاع المزرية التي آل إليها الشعب، وترصدوا المتاعب والمصاعب التي يواجهها أمام بطش المستعمر وظلمه واستغلاله"[3]

ويرى محمد ناصر أنّ ردة فعل الشعراء تجاه هذه الظروف اختلفت فقد " تركت المآسي التي شهدتها الجزائر في هذه الحوادث المهولة جراحات عميقة في قلوب الشعراء لونت شعر بعضهم بالحزن والتشكي وعبأت شعرا آخر بالثورة والتمرّد كما ألجأت بعضهم إلى السكوت المطبق فقد أصابتهم هذه المآسي بالذهول" [4]، والشاعر جمع في هذه المجموعة الشعرية بين التشكي والتمرّد .

2 معجم الطبيعة : وفيه قسمين: 1_معجم النور: تعدّدت المصادر النورانية في الديوان وجاءت في أغلبها تحمل دلالة إيجابية منها :

1. **الشمس**: يخاطب الشاعر الطبيعة قائلا:

هزي ضبابك عن فضائي واغربي ودعي شموسي تبعث الدفء المنير[5]

فمثّل الضباب معنى الغبن واليأس في مقابله الشمس معنى الأمن والسلام وزوال الأحزان.

2. **الشهب:** في سياق دعوته للقضاء على الطغيان يقول أبو القاسم خمار:

ياجذوة الحق ياروح الشباب ويا أسيرة الكبت والإهمال والنوب
ثورى فقد آن يا روح الطموح لنا بأن نتخذ آفاقا من الشهب [6]

ويخاطب بلاده ويطمئنها قائلا: **إنّ حواليك مثل الشهب**[7]
يبدو هذا التشبيه بسيطاً في ظاهره لكنه ترك بداخلنا أثرا طاب له النفس، فالشاعر توعد وطنه بالحماية وثقته بذلك يقينية، لأنه رأى نفسه شهاباً ثاقباً محرقًا لكل باغ مريد، واستحضار اللفظة القرآنية الشهب هو ما زاد الصورة جمالا، يقول جل جلاله:**"وَأَنَّا لَمَسْنَا**

ـــ محمد بلقاسم خمار،ديوان محمد بلقاسم خمار، مج 2،أطفالنا للنشر والتوزيع، الجزائر، دط، دت، ص 434. [2]

ـــ بلقاسم بن عبد الله، دراسات في الأدب والثورة، منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين، ط1 2001 ،ص 30.[3]

ـــ محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية، دار الغرب الإسلامي بيروت، ط2006،2، ص99. [4]

ـــ محمد بلقاسم خمار،الديوان ، ص 467.[5]

ـــ محمد بلقاسم خمار، ديوان محمد بلقاسم خمار، مج 2،ص 473.[6]

ـ المصدر نفسه، ص 444[7]

السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا(8) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا"(9)[سورة الجن8-9]
فالشاعر نقل وظيفة الشهاب القرآني كما هي، وغير في الفاعل والمفعول به، والشهب في القرآن الكريم منوطة دائما بالجن، وفي القصيدة أخذ المستعمر دور الجن وهو كذلك.
3. الفجر: وجدناه أكثر تعبيرا عن النور، لأنه نقطة تماس بين اللّيل والنهار وقد ربطه دائما بالفلاح والنصر:

فجر العروبة قد بانت طلائعه والنصر للحق ليس للغلب [8]

لاحظنا أنّ مصادر النور جاءت ضعف مصادر الظلام في الدّيوان، ويعود هذا لرغبة عند الشاعر في بث وإرساء معاني النور من بيان وحقيقة وهداية.

2_الظواهر الطبيعية: صوّر الشاعر عدّة ظواهر طبيعية منها مصاحبات المطر من رعد وبرق، لكنّها لم تكن بالقدر الذي وردت به ظاهرة الرياح (العاصفة، الريح، الإعصار، الزوبعة، النسيم)؛ يقول الشاعر معتبرا الإعصار معادلا للثورة والانتقام:

اهتف بدريك كالصواعق قاصفا أنا ناقم أنا قائم للثأر

إن للعروبـــــة راية خفاقة وعلى العداة زوابع إعصـار[9]

وكذلك فعل مع العاصفة فحملت المعنى نفسه حين تحدث باسم الثأر:

إني على مضض ثائر كعاصفة بالمصائب تزري[10]

أما النسيم فحمل غالبا دلالة السرور والتفاؤل ،يقول:

نسمة الروض قد تتلامس قلبي كالأماني.. فارتمى كالوليد[11]

كانت هذه روافد معجم الطبيعة، وتجدر الإشارة إلى أنّ هناك ألفاظا دالةً على هذا الحقل لم نصنفها لتنوعها وكثرتها،لكن لفت نظرنا فيها تكرار لفظة الأرض حيث بلغت 28 مرة وقد ربطها بالشرق والعروبة، وبالجدود وسوريا وفلسطين وغالبا قصد بها الجزائر.

يا شعر ياوحي الشجي،ويا أغاريد المعنى

هل تستجيب لآهاتي الحرى لأنغام اليتامى

---

[8] ـــ المصدر نفسه، ص 479.
[9] ـــ المصدر نفسه ، ص 503
[10] ـــ المصدر نفسه ،ص 469.
[11] ـــ المصدر نفسه ،ص 478.

وتهز أشواقي إلى وطني إلى أرض التفادي[12]

والحديث عن الأرض ميزة الشعر الثوري الجزائري؛ "سيجد الدارس لشعر الثورة مقطوعات رائعة تفيض بحب الأرض الجزائرية وهي مقطوعات تصف تمسك الشعراء ومعهم الشعب الجزائري عامة بكل شبر منها"[13] ولأن النماذج كثيرة اكتفينا بالمقطوعة السابقة .

3_ معجم الأمل: إن النظرة السوداوية الباكية التي وجدناها لم تمنع من وجود بارقات أمل في ثناياه، وقد بلغت نسبتها 17،66% ، وجدنا الشاعر يستبشر خيرا من الشباب ويراه أساس النصر،يقول:

وشبابنا سيعيد عزة أرضه عملاقة فواحة الأزهار[14]

ويستبشر الشاعر مرة أخرى عند استشهاد المجاهد الثائر قائلا:

أراني أرى الأرض مزدانة وأسمع منها زغاريد عيد[15]،

فسقوط شهداء بشرى بالحرية لأنها صعبة المنال لا تأخذ إلا بالتضحية والفداء، وفي قصيدة جذوة الحق أنشد الشاعر:

لا سيف كالحق جل الله صانعه ولا مضاء، كأهل الحق في الجب
فجر العروبة قد بانت طلائعه والنصر للحق ليس النصر للغلب[16]

فالشاعر كلّه إيمان بالنصر المضفر لأنّه على يقين بأنّ القضية التي يناضل من أجلها قضية عادلة.

4_ المعجم الوجداني: بلغت نسبته 7،44% وهذه العواطف ليست للمرأة الحبيبة فقط بل هي عاطفة خالصة تجاه الوطن العربي والجزائر بصفة خاصة يقول:

ما الحب إلا أن يكون شهامة وعزيمة من شعلة الإيمـان

يهفو به المرء المتيم شاديـا ما الحب إلا فيك يا أوطاني[17]

ولأن الجزائر بعيدة ولم يستطع دخولها شبّهها بمرأة هجرته ورفضت العودة إليه يقول في هذا الشأن:

---

[12] ـــ محمد بلقاسم خمار، ديوان محمد بلقاسم خمار، مج 2ص 526.

[13] ـــ الوناس شعباني، تطور الشعر الجزائري منذ سنة 1954 ، حتى سنة 1980، د.ط ، د.ت ، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر. ص 91.

[14] ـــ محمد بلقاسم خمار، ديوان محمد بلقاسم خمار، مج 2، ص 507.

[15] ـــ المصدر نفسه ،ص 537.

[16] ـــ المصدر نفسه، ص 471ـــ 474

[17] ـــ المصدر نفسه، ص 454.

إنّ التي ذهبت بقلبي
لا ترحم الأشواق في القلب الكبير
كم مرة أجثو على محرابها
أدعو وأرجوها اليسير
رحماك... رفقا... حدثيني
جودي عليا بنظرة تشفي حنيني[18].

من جميل التعبير لدى الشاعر أنّ يُحمِّل البنى الإفرادية دلالات ثورية وقد رعت المشتقات انتباهنا أكثر من غيرها، وقد كانت الغلبة لإسم الفاعل حيث ورد بنسبة 17،01% وقد توزعت دلالته في الديوان بين ثلاث معاني أساسية:

1. وصف حالة الشاعر الصبّ الذي يعاني فراق الوطن والأهل:

أنا يا دنيايا لولا أنني غارق في الشوق قلبي ما شكا
إنّ لي في كل أرض ألفة وبهم أمسي ويومي اشتبكا[19]

فإسم الفاعل "غارق" وحدها محمّلة بدلالات الغبن واليأس وغيرها من معاني الحزن.

2. وجدنا الشاعر يعبّر باسم الفاعل عن المستعمر في مرات عديدة وحتى اليهودي عندما استنجد بالعرب لإنقاذ فلسطين، ينادي:

أنقذوها إنما انتم لها واتركوا الباغي عليها ينحدر[20]

ثمّ يصف حالها جراء الاحتلال:

قطعت أوصالها من أرضها ورمى العاتي بها في ألا مقر[21]

فالصيغتان "الباغي والعاتي" عبّرتا عن حقد دفين يكنّه الشاعر للمستعمر أياً كان؛فرنسيا أو يهوديا أو انجليزيا لا فارق، فالقاسم واحد، وهو الظلم والجور.

من جميل المعاني التي حملها اسم الفاعل في الدّيوان هو دلالته على الثأر والجهاد وقد حضي صاحب هاتين الصفتين بوافر الإعجاب من عند الشاعر وقد دعا في أكثر من موضع إلى الاتصاف بهما يقول في إحداها:

الأرض أرضك أي هذا الساري فبطش بخصمك كالهزبر الضاري
واهتف بدربك كالصواعق قاصفا أنا ناقم أنا قائم للثأر[22]

فأسماء الفاعل "الساري، الضاري، ناقم، قائم" كلّها حماسية وموحية بقربان أجل الطاغي، أما اسم المفعول فقد جاء في غالبه دال على مآسي وأحزان الشاعر وأبناء وطنه، ومن دلالات هذا الحزن أنّه وصف أهوال ومجازر الثامن ماي:

---

[18] ـــ محمد بلقاسم خمار، ديوان محمد بلقاسم خمار، مج 2ص 522.
[19] محمد بلقاسم خمار،ديوان محمد بلقاسم خمار، مج2،ص 433.
[20] المصدر نفسه، ص 450.
[21] المصدر نفسه، ص 450.
[22] المصدر نفسه، ص 503.

والشيخ مخضوب المشيب من الأذى ينكب تحت السوط و الأكدار[23]

ويخاطب الطبيعة قائلا:

مالي أراك مليكة الحسن النضير مغمورة الأثواب في ليل مطير

وأراك من تحت الضباب كئيبة مخنوقة الأنفاس كالأمل العسير[24]

ولك أنّ تلاحظ أسماء المفعول في هذه المقاطع(،مخضوب ،مغمورة ،مخنوقة)كلّها مشحونة بالغيظ والنكد.

بالإضافة إلى هذه المشتقات وظّف الشاعر الاسم الممدود الذي بلغ حوالي ثمانية وأربعين اسما متفرقا في الديوان وهذا بعض منه: اللّوماء، الحمراء، الأرزاء، الفحشاء، الغبراء.

وما رعى انتباهنا في هذه الأسماء الممدودة هو أنّ الشاعر سخّرها للتعبير عن مواقف أو أحداث مؤلمة وخير مثال قصيدة ذكرى ماي الحزينة التي يقول فيها:

من كل جرم لو تراءى للملأ لبكوا دما للفعلة الشنعاء

ولقام في كل المواطن ثـــــائر متفجر في أوجه الجبناء

قوموا انظروا نحو الشراهة كالوباء قوموا فتلك مجازر الجهلاء

ما ذنب شيخ ظهره متقوس أخنى عليه الدهر بالأرزاء[25]

فالمدُّ في هذه الأسماء "شنعاء ،الجهلاء ،الأرزاء" ترجمة لغضب الشاعر وحسرته على أبناء وطنه.

أما الاسم المقصور فقد بلغ ستة وأربعين اسما والطريف في الأمر أنّ جميع الأسماء المقصورة التي أحصيناها تمثل جزءًا من المعجم الشعري الأساسي الذي وجدناه غالبا في الديوان فكان: (الأسى ،القذى ،الضنى، مرضى، الدجى، اليتامى وكان الجوى ،الهوى ،العذارى والردى) وهذه الأسماء تشترك في أنها عبّرت عن قلب الشاعر الشجي الثائر، والذي عزّز ذلك هو الألف المقصورة آخر هذه الأسماء، فقارئها يشعر أنّها صرخة يستنجد بها صاحبها طالبا الغوث وحتى لو لم يكن هناك مجيب فهو يحاول بها إطفاء النار المتوهجة بداخله.

---

[23] المصدر نفسه 504.

[24] محمد بلقاسم خمار، ديوان محمد بلقاسم خمار، مج 2ص 467.

[25] المصدر نفسه، ص 444.

كانت هذه بعض الملامح الثورية التي وجدناها في هذه المجموعة الشعرية وليس كلها فالنماذج كثيرة وحجم الدراسة لا يسمح بحصرها جميعا ، وقد عبّرت عن قضايا النضال والتحرّر من جهة، وعبّرت عن القيمة الجمالية التي حملتها هذه المعاني في شعر أبي القاسم خمار.

قائمة المصادر و المراجع:

ـــ الوناس شعباني، تطور الشعر الجزائري منذ سنة 1954 ، حتى سنة 1980، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، د.ط ، د.ت.

ـــ بلقاسم بن عبد الله، دراسات في الأدب والثورة، منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين، ط1 2001.

ـــ محمد بلقاسم خمار،ديوان محمد بلقاسم خمار، مج 2،أطفالنا للنشر والتوزيع، الجزائر، دط، دت .

ـــ محمد فكري الجزار، العنوان وسميوطيقيا الاتصال الأدبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب دط، 1998.

ـــ محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية، دار الغرب الإسلامي بيروت، ط2006،2.